الدرس السابع

توحيد الأسماء والصفات والانقسام فيه إلى ست فئات

توحيد الأسماء والصفات

صفات الصانع تنعكس على المصنوعات عادة، فالكتاب مثلاً له مضمون علمي وتركيب خارجي، فمضمونه العلمي يدل على مدى ثقافة مؤلفة، فكلما تطرق المؤلف فيه إلى مسائل أدق وأشمل كلما دل ذلك على سعة علمه وتنوع معرفته، والتركيب الخارجي للكتاب كلما كان أكثر تناسقاً ومتانة كلما دل على مدى اتقان صانعه لصنعته.

والكون كتاب خلقه الله تعالى، تنعكس فيه صفات الله عز وجل المختلفة، من قوة وعلم وحكمة وخبرة وغير ذلك نشأ عنها هذا الكون الواسع، وقد ورد في القرآن صفات لله تعالى وصفات مماثلة للمخلوق، فمن ما ورد لله تعالى من الصفات: العلم: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، والحلم: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[2]، والرأفة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] إلى غير ذلك، ومما ورد من الصفات للمخلوق أن الله تعالى وصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالحلم فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[4]، ووصف إسماعيل عليه الصلاة والسلام بالحلم أيضاً فقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[5]، ووصف الإنسان بالسمع والبصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[6]، كما وصف محمد ﷺ بالرأفة والرحمة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[7]. فكيف نفهم هذه الصفات.

---

(١) البقرة آية ٢٨٢.
(٢) البقرة آية ٢٣٥.
(٣) النور آية ٢٠.
(٤) التوبة آية ١١٤.
(٥) الصافات آية ١٠١
(٦) الإنسان آية ٢.
(٧) التوبة آية ١٢٨.

ولكن قبل الاجابة على ذلك نتساءل: هل صفات الله تعالى[1] محصورة أم مطلقة[2]؟ فقيل: بأنها محصورة في تسع وتسعين اسماً وصفة. وقيل: بأنها مطلقة، وقيل: وهو الصحيح بأن صفات الله تعالى المعلوم منها لدينا نحن البشر تسع وتسعون وهناك من الصفات ما لا نعلمه بدليل أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي»[3].

وهل صفات الله تعالى بعد ذلك توقيفية أم توفيقية[4]؟

والمقصود بالتوقيفية أنها معتمدة على النص الشرعي فقط في إثباتها، والمقصود بكونها توفيقية بأنها اجتهادية قياسية، بحيث يشتق له تعالى من أفعاله أسماء وصفات.

بالرأي الأول يقول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح، فإن صفات الله تعالى فرع عن ذاته، ولما كانت ذات الله تعالى غيباً، فإن صفاته تكون غيباً أيضاً، وما كان كذلك فإنه لا اجتهاد فيه.

وتنقسم صفات الله تعالى إلى نوعين:

النوع الأول: صفات ذاتية، وهي التي لم يزل الله تعالى متصفاً بها، وهي على نوعين: أولهما: معنوية وهي التي لا يمكن أن يوصف الله تعالى بضدها، كالعلم والحياة والقدرة والحكمة. ثانيهما: خبرية، كالوجه واليد والعين ونحو ذلك.

النوع الثاني: صفات فعلية، وهي ما يجوز أن يوصف الله تعالى بضدها،

---

(١) وقد يطلق الاسم على الصفة أحياناً وبالعكس، والاسم هو ما دل على معنى غير مقترن بزمان، والصفة هي ما دل على بعض أحوال الذات.

(٢) انظر الخلاف في تيسير العزيز الحميد ص ٦٤٤. فيض القدير ح ٢ ص ٤٧٨ عند الحديث رقم ٢٣٥٣. سبل السلام ح ٤ ص ١٠٩ في الأيمان والنذور. التلخيص الحبير ح ٤ ص ١٧٤.

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه. انظر تفسير ابن كثير ح ٢ ص ٢٦٩.

(٤) انظر سبل السلام ح ٤ ص ١٠٩ الأيمان والنذور. رقم الحديث ٩.

كالرضا وضدها السخط، كما قال تعالى في المؤمنين ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1] وقال في الكافرين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[2] وكالحلم وضده الغضب، كما قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3] وقال تعالى في الكافرين ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾[4] وكالرحمة وضدها العذاب، كما قال تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾[5].

وقد انقسم العلماء في فهم اسماء الله تعالى وصفاته إلى ست فئات:

الفئة الأولى: الكرّامية المشبّهة

تنسب هذه الفئة إلى محمد بن كرام السجستاني[6] الذي يعتقد بأن لله تعالى صفات كصفات المخلوقين، واحتج لذلك بأن القرآن الكريم نزل باللغة العربية والعرب لا يعرفون للألفاظ الواردة في لغتهم إلا ما هو معهود لديهم فاليد لفظة عربية مدلولها تلك الجارحة المعروفة عندهم، والعين لفظة عربية مدلولها آلة البصر، والوجه لفظة عربية ومدلولها ذلك الجزء الأعلى من البدن الذي تتم به المواجهة ويتميز به الناس بعضهم عن بعض، ولا بد من تنزيل الألفاظ العربية على مدلولاتها ليكون الكلام عربياً فيمنع الإعجام في الفهم لدى المخاطب، ومتى تخلف ذلك المدلول عن اللفظ الخاص به فإن ذلك يعتبر نقصاً في البيان، وقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[7] فلا يصح أن تحمل هذه الألفاظ على غير مدلولاتها، لئلا يؤدي ذلك إلى وصف القرآن باشتماله على العبثية.

---

(١) المائدة آية ١١٩.
(٢) محمد آية ٢٨.
(٣) المائدة آية ١٠١.
(٤) الفتح آية ٦.
(٥) العنكبوت آية ٢١.
(٦) توفى السجستاني سنة ٢٥٥هـ ويدعى محمد بن كرام السجزي، نسبة إلى سجستان، كان يقول: إن الله تعالى جوهر، وأنه مستقر على العرش، حبسه والي نيسابور محمد بن طاهر مرتين ثم أفرج عنه، فرحل إلى مصر ومات بها. انظر الأعلام ح ٤ ص ١٤.
(٧) الشعراء آية ١٩٥.

والجواب: أن الله تعالى أنزل القرآن بلغة عربية فصيحة وبليغة وجعله معجزاً للعالم إلى قيام الساعة فأحكم آياته وجعله مترابطاً حتى أصبح بترابطه وحدة متكاملة، فلا يصح الأخذ أو الاحتجاج ببعض آياته دون بعض فيصبح ناقصاً أو متناقضاً وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1]، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد ورد كيفية التعامل مع آيات الصفات في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[3]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[4]، فسبيل فهم صفات الله تعالى الواردة في القرآن أن يضاف إليها هذه الآيات ليصار إلى الفهم الصحيح فيها، وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن، وهو أعلى مراتب التفسير. وأيضاً فإن الشرع قد نقل صفات الله تعالى من معناها اللغوي إلى المعنى الشرعي وهو اثباتها على نحو يليق بجلال الله وكماله بدون تشبيه، كالصلاة مثلاً نقلها االشرع من معناها اللغوي هو الدعاء إلى معنى شرعي وهو التوجه إلى االبيت الحرام بحركة مخصوصة في وقت مخصوص، وكذلك الصيام والزكاة والحج.

الفئة الثانية: الجهمية المعطلة

الجهمية: ـ نسبة إلى الجهم بن صفوان السمرقندي، قال فيه الذهبي: إنه ضال مبتدع هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً، وقد قتله سالم بن أحوز والي مرو بخراسان سنة ١٢٨هـ[5].

من أبرز آراء الجهمية[6]: ـ القول بنفي رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة، والقول بخلق القرآن، ونفى الصفات والأسماء عن الله تعالى، وشبهتهم فيما ذهبوا إليه من هذا النفي أنهم قالوا: إن إثباتها لله تعالى يؤدي إلى التجسيم، فقالوا: لا

---

(١) النساء آية ٨٢.
(٢) الشورى آية ١١.
(٣) مريم آية ٦٥.
(٤) الإخلاص آية ٤.
(٥) انظر البداية والنهاية لابن كثير ح ٩ ص ٣٥٠. الأعلام ح ٢ ص ١٤١.
(٦) انظر الملل والنحل للشهرستاني ح ١ ص ١٢٧ وما يليها.

تخلوا الصفات لله تعالى من أن تكون قديمة أو حادثة، فإذا قلنا بأنها قديمة أي لا أول لها فإن ذلك يؤدي إلى القول بتعدد القديم وهذا شرك، وإذا قلنا بأنها حادثة فإن ذلك يؤدي إلى حلول الحادث في القديم، كما يؤدي أيضاً إلى تعجيز الله تعالى وإثبات صفة النقص فيه، لأنها إذا لم تكن ثم وجدت تدل على حاجته إليها وهذه حالة نقص يتعالى الله تعالى ويتنزه عنها، ومن هنا قالوا: بأن نفي الصفات من كمال توحيد الله تعالى وتنزيهه وعمدوا بالتالي إلى تأويلها.

الفئة الثالثة: ـ المعتزلة: ـ

وهم اتباع واصل بن عطاء توفي سنة ١٣١هـ، وكان تلميذاً في حلقة الإمام الحسن البصري، فلما سمعه يرد على الخوارج في تكفيرهم لمرتكب الكبيرة، ويقرر بأنه يبقى مع الكبيرة مسلماً لم يعجبه ذلك فانسحب من حلقته إلى زاوية في المسجد وتبعه بعض التلاميذ فقال الحسن البصري مشيراً إلى واصل: اعتزلنا واصل. فأطلق وصف الاعتزال واسم المعتزلة على واصل ومن معه بسبب[١] ذلك. ويشتركون مع الجهمية في كثير من آرائهم: فيقولون بخلق القرآن ونفي القدر ونفي رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة. ويقولون بنفي الصفات عن الله تعالى[٢] دون الأسماء.

والمعتزلة أثبتوا الأسماء لأنها منتهاها إلى مسمى واحد وهو الله تعالى، ونفوا الصفات لما يلزم من إثباتها من التجسيم فقالوا بتأويلها كما قال الجهمية فعمدتهم فيما ذهبوا إليه هو العقل.

الفئة الرابعة: الأشعرية الكُلّابية

أما الكلابية فنسبة إلى الإمام عبد الله بن سعيد بن كلاب المتوفى سنة ٢٤٠هـ، وأما الأشعرية فنسبة إلى الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤هـ، وقد نشأ في حضن زوج أمه أبي علي الجُبائي رأس المعتزلة في وقته. لأن أباه توفي حين كان الأشعري صغيراً وبحكم نشوئه في حضن أبي

---

(١) انظر الأعلام ح ٨ ص ١٠٨.

(٢) انظر مجمل آرائهم في: الملل والنحل للشهرستاني ح ١ ص ٦٦.

علي الجُبائي أخذ عنه مذهب المعتزلة. لكنه كان في كثير من الأحيان بعد أن شب واتسعت مداركه يتساءل حول بعض القضايا التي يقول بها المعتزلة ولا يجد لها جواباً مقنعاً، حتى فارقهم إلى الإمام محمد بن سعيد بن كلاب فتبنى رأيه الذي يثبت فيه لله تعالى ثلاث عشرة صفة وهي: واحدة نفسية وهي: صفة الوجود، وخمس سلبية وهي: البقاء والقدم والقيام بالنفس ومخالفة الحوادث والوحدانية، وسبعة معاني وهي: الإرادة والسمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والكلام[1].

وزاد عليها الأشعري السبع المعنوية وهي اشتقاق اسم الفاعل لكل صفة من هذه الصفات السبع فتكون: مريد، سميع، بصير، حيّ، عليم، قدير، متكلم، إلا أن الأشعري توقف في كثير من المسائل في مذهب ابن كلاب وحار فيها أيضاً حتى اضطره ذلك إلى مفارقة الناس لمدة قيل: أربعين يوماً، لا يخرج فيها لجمعة ولا لجماعة حتى تأمل رأى الإمام أحمد بن حنبل في صفات وأسماء الله تعالى. فوجد فيه الجواب عن كل تساءلاته فخرج على الناس في يوم جمعة وصعد على المنبر وأخبرهم عن حيرته السابقة واهتدائه الأخير إلى الرأي الصواب في القضية، وأعلن انخلاعه عما يخالف رأي الإمام أحمد ابن حنبل في صفات الله تعالى وأسمائه، وألّف كتاب (الإبانة عن معاني الديانة)[2].

الفئة الخامسة: المفوّضة الواقفية

وسمى هؤلاء بالمفوضة، لأنهم فوضوا أمر هذه الصفات إلى الله تعالى، وقالوا: إننا لا ندري ما إذا كان لهذه الصفات حقيقة أو لا، لأننا لو أثبتنا لها حقيقة أي كيفية، لأدى ذلك بنا إلى التجسيم، ولو نفينا عنها الحقيقة لأدى بنا ذلك إلى التعطيل[3]، وكلا الأمرين مرفوض فنحن نفوض أمر القول فيها إلى الله تعالى، ونتوقف عن الخوض فيها لا نفياً ولا إثباتاً، ولذلك يسمون بالواقفية أيضاً.

---

(١) انظر: أم البراهين في العقائد للسنوسي ص ٣ من مجموع مهمات المتون.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ح ١١ ص ١٨٧ حوادث سنة أربع وعشرين وثلاثمائة. وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ح ص .

(٣) التعطيل هو تفريغ اللفظة من معناها، وعندئذ تكون اللفظة عبثية، وحاشا لله تعالى أن يكون في كتابه عبث. فقد وصفه الله تعالى بالإتقان والإحكام فقال تعالى (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هود آية ١.

وقد **وهم بعض الناس فظن أن المفوضة من أهل السنة، أو أن أهل السنة مفوضة، وليس الأمر كذلك**، فإن المفوضة توقفوا في إثبات الحقائق لصفات الله تعالى، فقالوا: لا ندري هل لها حقائق أي كيفيات أو ليس لها حقائق، وفوضوا الأمر في ذلك إلى الله تعالى، وأما أهل السنة فقد أثبتوا للصفات حقائقها، وفوضوا إلى الله تعالى أمر معرفة هذه الحقائق فيها، وفرق كبير بين الأمرين.

الفئة السادسة: أهل السنة والجماعة

وهم كل من سار على نهج أصحاب رسول الله ﷺ في العلم بالله تعالى والعمل بأحكامه، واجتناب المراء والجدل، فلا يقحمون عقولهم في غير ميدانها من القضايا الغيبية، لأن مبناها على النص والخبر، معتمدين في ذلك قول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] وأبرز من يمثلهم في ذلك الإمام أحمد بن حنبل[2]. لأنه أقوى من وقف في وجه المعتزلة إبّان صولتهم، وجدد بذلك مذهب أهل السنة.

ورأيهم في أسماء الله تعالى وصفاته: إثبات جميع ما أثبت الله تعالى لنفسه وأثبت له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات إثباتاً بلا تجسيم، ونفى جميع ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ نفياً بلا تعطيل، على قاعدة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

واعتمدوا في الرد على الفئات الأخرى قاعدة ذات شقين[4]:

الشق الأول: القول في الصفات كالقول في الذات، فكما أن الذات لا ندرك

---

(١) الأحزاب آية ٣٦.

(٢) لأنه هو الذي وقف في وجه المعتزلة في العهد العباسي الذين حاولوا تحويل المسلمين عن منهج التسليم للنص إلى منهج التقديم للعقل، في قضية الصفات في القرن الثالث الهجري، ثم جدد هذا المنهج في ظروف مماثلة كل من إبن تيمية وابن القيم في القرن الثامن، ثم جدده محمد بن عبد الوهاب والشوكاني في القرنين الأخيرين، وقد سار على هذا المنهج قديماً وحديثاً كثيرون في هذه الأمة، والحمد لله رب العالمين.

(٣) الشورى آية ١١.

(٤) أشار إليها ابن تيمية في الرسالة التدمرية ص ١٥ وص ١٩.

كيفيتها، مع الإيمان بها عند الجميع، فكذلك الصفات يجب أن نؤمن بها مع عدم العلم بكيفيتها، لأن الصفات فرع عن الذات، فما يثبت للذات يثبت نظيره للصفات. وفي هذا ردّ على الكرامية والجهمية والمعتزلة والمفوضة.

الشق الثاني: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فحين أثبت الأشعرية الكلابية عشرين صفة لله تعالى بحجة أن مقام الربوبية يقتضيها، ثم أوّلوا سائر الصفات بحجة الخوف من التجسيم، كان يجب أن يثبتوا جميع هذه الصفات أيضاً دون تأويل على قاعدة (ليس كمثله شيء)، لأن المصدر الذي وردت فيه الصفات التي أثبتوها والتي أولوها واحد، وهو القرآن الكريم، فما يقال في حق هذه يقال في حق تلك بلا تفريق.

وفي هذا رد على الأشعرية الكلابية.